الفصل الثامن

لماذا الوحدة العربية

يستطيع الإنسان بقليل من التفكر والتدبر والتمعن أن يتبين، أن وراء هذا الكون العامر بالكمال الزاخر بالمخلوقات والأشكال والألوان والظواهر، هناك الجماعات الإنسانية التي مهما اختلفت لا تعدو أن تكون تركيبات لذرات متجانسة. ثم إن المخلوقات جمادها ونباتها وحيواناتها تخضع في حركتها وتفاعلها مع بعضها لقوانين واحدة وتنتمي كلها لبعضها البعض.

إذن الوحدة حقيقة كونية، ومن الطبيعي أن يسقط الإنسان هذه الحقيقة على نفسه فيما يُلاحظ عليه من ميل فطري نحو الوحدة، ولو لم يكن الأمر كذلك لما رأينا الإنسان يعيش جارًا لأخيه الإنسان ولما وجدنا أن أصعب الأشياء على النفس البشرية ألا تجد من يتحدث معها من بشر آخرين، لهذا كان السجن الانفرادي عقابًا قاسيًا لمن يتعرض له.. ولو لم تكن هذه الحقيقة لما عاش الناس في المدن والقرى والشوارع المزدحمة وأنشأوا بيوتهم جنبًا إلى جنب، ولما كان الإنسان مدنيًا بطبعه.

لا شك في أن الإنسان ظل لفترة طويلة يحصر هذه النظرة في نطاق عرقي ضيق قل على النطاق العائلي أو القبلي، غير أن ظهور الرسالات السماوية وما فتحت للإنسان من مشارب الفكر واستيضاح وحدة الأصل عند بني البشر وقيام المودة التي اتسعت لتشمل رابطة الرحم ورابطة الوطن الذي يعيشون عليه ورابطة العقيدة، كل هذا أوجد رابطة إنسانية تنادي كل البشر. وهو ما أدى إلى ظهور المنظمات الإقليمية والدولية التي تجمعها المصالح ووحدة الثقافة. فكان من الطبيعي والعرب جزء من البشر أن يظهر بينهم رواد وفلاسفة ينادون ويطالبون بالوحدة الشاملة التي ترتكز إلى الفكر القومي العربي.

يقال إن الشيخ الجليل "عبد العزيز بن باز" – رحمه الله قد سئل عن القومية:
ما رأيكم في الدعوة إلى القومية التي تعتقد أن الانتساب إلى العنصر، أو اللغة مقدَّم على الانتساب إلى الدين. وهذه الجماعات تدعي أنها لا تعادي الدين ولكنها تقدم القومية عليه، ما رأيكم في هذه الدعوى؟

أجاب فضيلته (كتاب فتاوى الشيخ ابن باز) ":

"هذه دعوة جاهلية، لا يجوز الانتساب إليها، ولا تشجيع القائمين بها، بل يجب القضاء عليها؛ لأن الشريعة الإسلامية جاءت بمحاربتها والتنفير منها، وتفنيد شبههم ومزاعمهم والرد عليها بما يوضح الحقيقة لطالبها؛ لأن الإسلام وحده هو الذي يخلد العروبة لغة، وأدبًا، وخلقًا. وأن التنكر لهذا الدين معناه القضاء الحقيقي على العروبة في لغتها، وأدبها، وخلقها. ولذلك يجب على الدعاة أن يستميتوا في إبراز الدعوة إلى الإسلام بقدر ما يستميت الاستعمار في إخفائه".

وقال الشيخ ابن باز – رحمه الله – أيضًا:
".. وكيف يليق في عقل عاقل أن يقارن بين قومية لو كان أبو جهل، وعتبة ابن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأضرابهم من أعداء الإسلام أحياء لكانوا هم صناديدها وأعظم دعاتها.. وبين دين كريم صالح لكل زمان ومكان، دعاته وأنصاره هم: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر الصديق، وعمر ابن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم من الصحابة، صناديد الإسلام ، وحماته الأبطال، ومن سلك سبيلهم من الأخيار؟"

ما سبق هو ما قاله الشيخ ابن باز وما يقوله معظم شيوخنا الأفاضل في زمن اقتصر فيه الدين على العبادات والحلال والحرام وحفظ النصوص فقط. وهل الأمة لو فكرت أن تنهض وتتوحد تعتبر متجاهلة دينها؟ الأديان في جوهرها هي نبراس للإنسان تهديه وترشده إلى الطريق القويم.

عندما يريد أحدنا السفر والانتقال بوسيلة انتقال من مكان إلى آخر مثلاً، سيجد طريقه وقد تحولت إلى علامات مرورية وإشارات ومحفزات ترشده وتقيس سرعته وما تبقى له من وقت ومسافة لبلوغ الهدف، وهذا يضمن سيره في الطريق الصحيح.. الأديان السماوية والوضعية رسالتها أن ترشد الإنسان وتدله إلى طريق الخير، لكنها لا تمنعه من التطور. لقد ذكر القران بعض الحيوانات لكي يستعملها الإنسان حينما كانت الدنيا غير دنيا هذا الزمان. (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) سورة النحل - آيه ٨ ، فهل معنى هذا إلا نستعمل السيارة والطائرة والقطار والسفينة الآن؟

فإذا كان الله جل جلاله قد خلقنا لآدم وأوصانا بصلة الرحم حتى آدم، والأقربون أولى بالمعروف، فهل نصنع ضررًا بديننا حينما نحترم ثقافتنا وتاريخنا ولغتنا ونستدعي قوميتنا كمرتكز لوحدتنا من أجل الوحدة والقوة والمنعة؟
ثم هل العرب في الماضي لم يكونوا عربًا قبل الإسلام أو أن دعاة القومية الآن أتوا من جنس آخر ويريدون إلباس القوم ثوبًا غير ثوبهم. ألم يكن العرب قبل الإسلام يتكلمون اللغة العربية وكانت العربية هي لغة القرآن حينما كرم الله العرب بالإسلام بعد ذلك؟ ألم يكن محمد صلى الله عليه وسلم عربيًا، وكذلك كان أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وكان مثلهم من لحق بهم من العرب الميامين؟

الزمن الآن هو غير الزمن، والدنيا هي غير الدنيا، والأمير في زمن الإسلام الحقيقي كان واليًا وحاكمًا وقائدًا وعالمًا يرشد القوم ويعلمهم ويخدمهم، فأين منا الآن الشيوخ والأئمة الذين خفضوا رؤوسهم لأهل السلطة، الذين أصبحوا أغرابًا عن حياة رعيتهم في زمن العلم والتجربة واستعمال العقل للوصول إلى اليقين؟

كان يقال عن معاوية بن أبي سفيان، أنه داهية العرب في السياسة والحنكة فهو صاحب مقولة "لو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت، إن شدوها أرخيتها، وإن أرخوها شددتها". أين معاوية بن أبي سفيان من أناس عاديين في هذا الزمن الذي تطور فيه الإنسان عقليًا وفلسفيًا وسياسيًا إلى درجات عالية بل وأصبح في العالم علماء نفس ومنظرون لأشياء يكاد الواحد منهم بحسابات وجدانية أن يعرف ما سيأتي في زمن المادة بعد زمن.

ثم لماذا يميل البعض إلى تشويه الإسلام وزرع بذور الشك فيه وهم لا يدرون خصوصًا حينما يعارضون الرابطة القومية ويكفرونها؟ هل العربي لو كان قوميًا وسعى إلى أسباب القوة كالوحدة مثلاً يعتبر كافرًا؟ أمم كثيرة غير مسلمة وأصابت ما أصابت من أسباب القوة والنفوذ ولم تكن تتبع دينًا سماويًا، وأمم أخرى تملك القوة وتقاد بمن يؤمنون بدينهم (الرئيس جورج بوش الابن حينما غزت جيوشه أفغانستان قال إنها حرب صليبية). هل الأديان عند أصحابها وضعية أم سماوية؟

هي سفن تحمل الفضائل والقيم في الثقافات المتعددة، هي في حالة الدين الإسلامي صلة روحانية علوية بين العبد وربه تحكمها معرفة الخالق فقط بعباده وضمير الإنسان نفسه.

لماذا لا نبني ونعتز بقوميتنا، الم يميزنا الله فأنزل القران عربيًا على نبي عربي وما زال المسيحي العربي يفخر بلغته العربية لغة القران؟ حينما تحدث نكبة أو مصيبة في قطر عربي، فمن يتداعى إليها أولاً العرب أم المسلمون في الكرة الأرضية؟
القومي العربي لا يعادي الديانة أو المعتقد فالقومي العربي ليس كافرًا، إنما لديه قضايا ومشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية وتنموية تحتاج إلى حل.. لا يقوم بها شيخ يؤم بالمصلين في المسجد فقط. أيهما أسهل للنهوض بالأمة أن تتوحد الأمة العربية برابط قومي عروبي أم برابط إسلامي تجتمع فيه المذاهب والملل والطوائف ورجال الدين على اختلاف مذاهبهم السنية والشيعية والدرزية والعلوية والإسماعيلية والأحباش، وغيرهم ممن يقتربون من الإسلام كثيرًا أو يبتعدون؟

ثم كيف تكون قومية إسلامية والقومية وأي قومية هي الانتساب بالدم لنوع من البشر مثلما يقال، صيني، عربي، فارسي، هندوكي، كردي، أنجلو سكسوني، قبطي، أمازيغي.. الخ؟ الإسلام دين ليس وراثيًا بل يورث بالإقناع والفهم والإيمان، ويمكن أن تؤمن به جميع القوميات، والعكس أن ينحصر في قومية واحدة وهذا ضد أهم مبادئ الإسلام لأنه دين للبشرية جمعاء.

هذا، ويقول البعض باذخين في تطرفهم الأعمى، إنهم يفضلون القومية الإسلامية بدلاً من القومية العربية، كأن الدعوتين في صراع وتصادم فلا تعيش الأولى إلا بإلغاء الثانية. ثم أليسوا هم أيضًا عربًا حينما يقولون بأن القومية العربية تشتمل على طوائف وديانات سوف تسبب البلاء للمجتمع العربي المسلم؟ إذا كانوا يعنون إخوتنا المسيحيين العرب، فهل سبب المسيحيون العرب على مدى التاريخ الإسلامي بلاء لأي بلد عربي أو إسلامي؟ هل نسي هؤلاء بأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء والعلماء من السلف الصالح كلهم أوصوا بمعاملتهم معاملة حسنة؟

لا شك في أن القومية العربية هي من المقومات الأساسية في بناء الوحدة، ففيها المبرر والدافع الأكبر للإيمان بالوحدة والنضال من أجلها. فما دام الأمر هكذا وأن الترابط الجدلي قائم بينهما بهذه القوة، وما دامت الوحدة مرتكزة إلى القومية، فلا بد أن نتأكد من أن لهذه القومية وجودًا حقيقيًا ثابتًا وفاعلاً عند المواطن العربي، وأنها ليست وليدة ظروف مرحلية طارئة أو اجتهادات متطورة قابلة للتبدل والتغير. وحيث أن الوحدة هي التجسيد السياسي العملي للقومية العربية، وأن المشاعر القومية هي للوحدة بمثابة غذاء الشجرة الذي يمدها بالقدرة على النمو، فقد أصبح لزامًا علينا أن نبرهن على أن القومية العربية حقيقة قائمة، أو قضية مقضية لا شك فيها، ولا مجال لإنكارها أو الاستخفاف بتأثيرها، فهي ليست كما قال الماركسيون باسم الأممية، حين اعتبروا القومية وليدة القرن التاسع عشر ولمرحلة عابرة فقط، أو كما فعل الإسلاميون الذين لم يروا في الإسلام سوى عالميته وتجاهلوا صلته العضوية بالعروبة.

الشجرة الطيبة جذورها في الأرض، تمدها بالغذاء اللازم للنمو والإنتاج. كذلك الأمر بالنسبة للقومية العربية فهي ضاربة في عمق تاريخ العرب الذي يمدها بوحدة التراث الروحي والثقافي ويجعلها قوة دفع نحو الوحدة. لهذا لن تموت الدعوة إلى الوحدة إلا بموت الشعور القومي، وهذا الشعور قد يضعف وقد يخفت، وقد يتسع أو يضيق، لكنه لن يموت ما دام في الأمة نزوع للبقاء والتقدم، كما هو الشأن في الأمة العربية الكبيرة، ذات الحضارة العريقة، في حين أن الأقليات القومية في كل دولة قوية قد تذوب عن طريق الهيمنة إذا طالت لمئات السنين، أو بالانصهار الطوعي الناجم عن توفير المساواة والعدل مع بقية مواطني الدولة، ومن المناسب أن نذِكر هنا بما جرى في أواخر أيام الاتحاد السوفييتي من التحركات والتظاهرات ذات الطابع القومي في ظل الديمقراطية الجديدة التي أتاحتها البريسترويكا في روسيا، التي دلت على أن المشاعر القومية لم تمت بل كانت مكبوتة بفعل القوة ما يزيد على سبعين عامًا.

إن قيام دولتين ألمانيتين في أوروبا ودولتين كوريتين في أسيا بعد الحرب العالمية الثانية واصطناع الخصومة والتنافس بين الدولتين المنتميتين لأمة واحدة لم يخمد المشاعر القومية التوحيدية بين أبنائها،وبقيت الضغوط الشعبية تدفع باتجاه الوحدة القومية، وعدم التوقف عند الهوية الجنسية التي تمنحها الدولة لمواطنيها. وهكذا تحققت الوحدة الألمانية بينما يمضي توحيد الكوريتين في طريقه. وهذا ينفي الرأي القائل بأن الدولة تخلق القومية، لكنه لا ينفي أن يكون قيام الدولة المطابق لحدود القومية معززًا لهذه القومية. لماذا أصر الألمان وانتظروا حتى توحد شطري الدولتين ولماذا أصر الفيتناميون على التوحد وحاربوا أكبر قوة على سطح الأرض وتوحدوا، وأمتنا العربية مشتتة مستكينة؟!

من الأشياء غير السوية التي لا تنبغي للوحدة ما يكتنف معناها من تمييع وتضييع عن قصد وتعمد، أو عن جهل باللغة وبالمضمون العلمي للكلمة، وذلك الملاحظ عند الأنظمة العربية الراغبة في المحافظة على قطريتها وإمتيازاتها حينما تتحدث عن الوحدة، فإنها تريدها بمعناها اللغوي العام الذي لا يتعدى معنى التعاون والتضامن والتنسيق، ولا يصل إلى معناها السياسي الدستوري الذي يستوجب قيام دولة وحدة فوق الدولة القطرية!

في اللغة كلمة وحدة هي مصدر لفعل "وحَّد"، أي جعله واحدًا، وهي بديل التجزئة. ووحد الأشياء توحيدًا، بمعنى اتحدت وصارت شيئًا واحدًا، والاتحاد جسم مركب، والاتحادات السياسية المركبة على أنواع: الاتحاد الكونفدرالي والاتحاد الفيدرالي. والوحدة التي نفهمها ونسعى إليها ذات صيغة اتحادية لا مركزية، بكل ما تعنيه كلمة الاتحاد السياسي (الفيدرالي) من معان، وهي من المعاني المعروفة في كتب القانون والنظم السياسية، ولا بأس أن تتم الوحدة على خطوات ومراحل ومستويات مختلفة لكن لا بد من البدء. إن من الطبيعي أن الوحدة لن تنجح ولن تؤتي أكلها إلا إذا قامت على الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان. فالدولة الاتحادية يمكن أن تنشأ من انضمام عدة دول لبعضها بحيث تكون دولة واحدة لها سلطة على الدول الأعضاء ولا يكون سيادة خارجية للدولة القُطرية، وتحتفظ الدولة

الاتحادية بالسيادة الداخلية في معظم شؤونها فيما يتعلق بدول الاتحاد القطرية. ويكون لكل دولة قطرية دستورها وقوانينها ومجالسها النيابية وحكومتها وقضاؤها وتشريعاتها التي لا تتعارض مع قوانين الاتحاد. هذا، وتكون الدول المشتركة بالاتحاد ولايات أو مقاطعات أو دويلات أو أي أسماء مقبولة، كما الاتحاد السويسري والولايات المتحدة الأمريكية مثلاً. إن من الضروري أن يكون الدستور الاتحادي محاولاً التوفيق بين السيادة القومية والسيادة القطرية بل أن كل شيء مطروح للنقاش والاتفاق ما دامت النية إنجاز الوحدة العربية..

ما سبق مجرد تصور وعناوين لهدف كبير يستحق التمعن فيه بعمق وحرص شديد.

لا شك في أن التباسات تحدث أحيانًا من قبل بعض الأنظمة العربية التي سعت في وقت معين للوحدة مع أقطار أخرى خصوصًا في معنى الكلمات والديباجات التي استخدمت في صياغة مواثيق الوحدة، مثلما نجم مثلاً عن ميثاق الوحدة الثلاثية (مصر – سورية – العراق) سنة ١٩٦٣م الذي طالب بتنفيذه بعض القوميين رغم ما اعترى المنطقة العربية من تغييرات توجب تعديل ذلك الميثاق لو أريد تنفيذه. ومثل مؤتمر الشعب العام في ليبيا الذي قرر في طرابلس عام ١٩٩٠م المصادقة على مشروع للوحدة مع السودان وتحقيقه بأقصى سرعة ممكنة، وذلك للوصول إلى الوحدة الاندماجية ثم دعوة الدول العربية الإفريقية بالانضمام إلى الوحدة. استخدمت بعض الكلمات ولاسيما من الفئات الحاكمة من غير أن يدققوا بمحتواها ومعناها اللغوي. فإذا لم تكن دقيقة وتوضع في مكانها الصحيح فإنها تلقي ظلالاً من اللبس والغموض على ما يقصد بالوحدة أو الاتحاد. ومن هذا القرار يلاحظ فقدان الدراسة الجدية والعلمية للوحدة، إلى جانب الغموض في فهمها، وذلك عندما يستعجل قيام الوحدة الاندماجية ويدعو الدول الأفريقية للانضمام إليها. إن التوجه للوحدة يعني العمل المشترك بين دولتين أو أكثر لتحقيق منفعة متبادلة تساعد على التفاهم والتفاعل واستبعاد الصراع. ويقوم على أساس التكافؤ حتى لا يتحول إلى تبعية.

المساندة والتنسيق والتأييد والشجب مثل دور جامعة الدول العربية هو غير معنى التفاعل والتكامل بين دولتين أو أكثر بحيث يصبح لهما كيان واحدٌ موحد، له صلاحيات أعلى وأوسع من صلاحيات الكيانات المندمجة فيه. بينما الرابطة بين الدول تربطها ببعضها وقد تكون الرابطة ضعيفة.

ما القومية، أليست هي إحساس بالانتماء والولاء إلى الأمة واستعداد للدفاع عنها، وأنه لا قومية بلا أمة في وطن، ولا وحدة بلا قومية، ولا قوة لقومية بلا دولة. هو ما قاله المفكر ساطع الحصري من ناحية: "إن القومية حب القوم والوطنية حب الوطن". وما يقوله أيضًا الأستاذ ميشيل عفلق من ناحية أخرى: "القومية حب قبل كل شيء هي نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته، لأن الوطن بيت كبير والأمة أسرة واسعة".
إن القومية كما أسلفنا من كلمة قوم حيث ذُكرت في ٣٨٣ آية قرآنية وكلها بمعنى جماعة اجتماعية تشد أفرادها روابط معينة تميزهم عن غيرهم.

هذا، ومن الصواب أن يُفهم أن الإشارة لقضية الجنس، لا تعني فيما نفهم منها القرابة المادية القائمة على وحدة النسب ونقاء الدم، وإنما هي اعتقاد قائم لدى الكثيرين بوجود هذه الرابطة العرقية، كونها قوة معنوية لها تأثير فعلي في التعاطف والتقارب بينهم. والاعتقاد الراسخ في النفوس يكتسب أحيانًا قوة الحقيقة رغم استناده إلى الوهم. بعبارة واحدة: القومية شعور يربط بين أفراد الأمة ويعبر عن الولاء لها. القومية بالنسبة للفرد هي قدره وهويته لا يستطيع الانفكاك عنها، كما أنه لا يستطيع التخلص من ملامح وجهه وبصمات أصابعه.

إن مما يؤسف له في واقعنا العربي، أن الأيديولوجية القومية العربية المعاصرة في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين لم تعد تحمل الشحنة الحماسية التي كانت تحملها في الخمسينات والستينات من القرن العشرين رغم رياح التغيير التي تعصف بالأمور الداخلية للدولة الإقليمية المتمثلة بثورات الشباب، لأن من سعوا إلى تطبيقها على أرض الواقع أخفقوا بصورة عامة، ولاسيما بعد تسلمهم السلطة في كل من الأقطار خصوصًا مصر وسورية والعراق وغيرها. لكن منطلقات الفكر

القومي العربي ما تزال صحيحة وأن العلة تكمن في سوء التطبيق. هذا، وأما كلمة العروبة فهي مصطلح قديم للدلالة على القومية العربية، وهي مجرد اصطلاح متداول أحيانًا ولا يتصادم أبدًا في معناه مع الهدف.. أنا عربي قومي أو عروبي وحدوي الخ..

هذا، وإن الفكر القومي العربي الحديث ليس شاذًا أو شوفونيًا بل هو فكر إنساني علمي متحرر، يتجاوز العامل العرقي والعنصري ويشجب التعصب ويعتبر اللغة والعوامل الثقافية والروحية (الدين)هي الأصل والأساس في بناء القومية العربية بفهمها الإنساني الرحب.

لهذا كان الشعور القومي قديمًا قدم المجتمعات والشعوب كما الأمة العربية. أما عوامل تكوينه، ومدى قوته وسعته، أو ضعفه وانكماشه، والمضامين التي تعطى له والشعارات التي تعبر عنه في كل مرحلة من مراحل التاريخ المختلفة، فإنها تخضع لتبدل الظروف وتطور الحياة الاجتماعية والسياسية للمجتمعات البشرية عبر تاريخها الطويل. في عصر الجاهلية كان الشعور القومي ضعيفًا مشتتًا بالعصبية القبلية وقلما يتخطى شبه الجزيرة العربية وتلك طبيعة الزمن والمكان والظروف، ومع ذلك كان يعبر عن نفسه عن طريق اللغة الواحدة واللقاءات المتكررة في الأسواق الأدبية والاقتصادية في مكة وعكاظ ومجنة وذي المجاز (أسواق العرب القديمة)، مع خصوصية الاهتمام بالأنساب والتقاليد العربية المعروفة من كرم ونجدة ونخوة، وكان يبرز أيضًا عندما يقع احتكاك بين قبيلة عربية وقوى أعجمية، كما في معركة ذي قار بين العرب والفرس عام ٦١١م.

بعد ظهور الإسلام وتوحيد القبائل العربية وتفجير طاقاتها، وقيام الدولة العربية الإسلامية، أصبحت العروبة الجديدة معززة بالإسلام، فكانت الدولة القوية الواحدة في عهد الخلفاء الراشدين ثم الأمويين والصدر الأول من حكم بني العباس. لقد كانت الدائرة القومية تتسع بالتعريب أو بالاستعراب في ظل الإسلام ومبادئه. وهذا يعني أن القومية كالكائن الحي تنمو وتتسع أو تتقلص وتنكمش، تقوى وتضعف، تزيد وتنقص، تؤثر إيجابًا أو تتأثر سلبًا، لكن قوتها كانت تصل ذروتها عندما تجابه تحديات داخلية أو خارجية خصوصًا حينما تتجسد في دولة سياسية واحدة.

هذا، ويجب ألا يفوتنا أن الشعور القومي يعبر عن نفسه بأشكال ومضامين وأهداف مختلفة حسب العصر، المضمون الديني مثلاً كان يطغى في حالة الغزو الصليبي، بينما تبرز العوامل الأخرى كالثقافة والتراث الحضاري وإرادة التحرر والاستقلال، في حالة المجابهة مع الأتراك العثمانيين، أو مع الاستعمار الأوروبي والاحتلال الإسرائيلي. وهذا يعني أن دائرة الشعور القومي قد تضيق أو تتسع، وقد يكون الشعور القومي عفويًا غامضًا أو ناضجًا ونابضًا بالقوة والإرادة، ذلك تبعًا لمستوى الوعي والقدرة على الاتصال بين أبناء الأمة الواحدة، فهو واسع وقوي وواضح في ظل الديمقراطية وحرية الرأي وانتشار الثقافة، لكنه يكون ضعيفًا ومجزأ وخافتًا في ظل التبعية الثقافية والسياسية والإعلامية للدول القوية، وفي ظل تعدد الكيانات والأقطار الإقليمية في الوطن العربي الكبير.

عند العرب المسلمين، الأمة كلمة وردت كثيرًا في القرآن الكريم تحمل عدة معان أبرزها في مخاطبة المسلمين بمعنى الجماعة "كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (آل عمران ١١٠). وأن دائرة الأمة تتسع بانتماء أفراد جدد إليها عن طريق الاستعراب وتعلم اللغة العربية، وكذلك عن طريق الولاء. هذا بالإضافة إلى أن كثيرًا من الشعوب غير العربية الأصل قد تعربوا من خلال انتسابهم للإسلام وتأثرهم بلغته وعادات العرب. وهذا هو معنى قول ابن تيمية "من ولد في الإسلام فهو عربي" ويعني أنه "ولد في دار العرب واعتاد خطابها".

هذا، وحينما ننفي العامل العرقي من عوامل القومية وتكوين الأمة، ويصبح من المتعذر إثباته علميًا في أي شعب أو أمة، تكون اللغة والتراث الروحي والحضاري والمصلحة المشتركة هي الأساس، ويصبح أبناء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج أمة واحدةً وتجمعهم مشاعر قومية مشتركة، واضحة منذ ظهور الإسلام على الأقل.

الدكتور لويس عوض يرى أن القومية العربية لا تتعدى عرب الجزيرة العربية وهو ما لا يُتفق معه عليه، فماذا عن الحضارات القديمة في الأرض العربية كالفرعونية

في مصر والبابلية في العراق والآرامية في سورية والفينيقية في لبنان والقرطاجية في تونس؟ تلك الحضارات لم تكن معزولة عن بعضها، وسرعان ما كان اللاحق منها يتأثر بما سبقه.. جاءها الإسلام فعربها. يعني أن العرب المعاصرين من الوجهة الحضارية هم خلفاء الشعوب التي سكنت الأرض العربية منذ آلاف السنين، وأن حضارتهم المعاصرة تمثل أخر مراحل التطور بين سكان الوطن العربي، والجيل العربي الراهن هو بأخلاقه وعاداته ومفاهيمه، أقرب إلى الجيل الذي سبقه، وهذا أقرب إلى من سبقه، وهكذا إلى نهاية السلسلة التي يمكن أن تقود آلاف السنين، وهذا يسمح لنا بالقول أن الأمة العربية الحاضرة هي امتداد طبيعي وتطوري لتلك الشعوب الغابرة، مع أن الزمن البعيد وما حصل فيه من تطور هائل جعل لغة السلف غير مستخدمة عند خلفائهم الحاليين (العرب). ولهذا ليس من التطور أن يركز العراقي على حضارة بابل ويمدحها على حساب الحضارة العربية الإسلامية، وكذلك على المصري صاحب الأهرامات والسوري الكنعاني ألا يقفا عند حضاراتيهما القديمتين، لأن.. حتى حضارة وادي النيل وحضارة بابل وحضارة الكنعانيين كانت لا تتأثر ببعضها البعض، وعليه يجب ألا يصبح التشبث بالماضي تعزيزًا وترسيخًا للأوضاع القطرية القائمة على حساب التوجه القومي، وبناء الدولة العربية الواحدة.

ولو استقرأنا التاريخ ومضينا معه لكي نصل إلى الحقبة الزمنية التي ظهر فيها الإسلام وسادت تعاليمه ودولته العربية الإسلامية، لوجدنا أن القومية العربية قد تبلورت وأخذت أبعادها الحالية بفعل اللغة التي عززها وصانها القرآن في حالات الوحدة والتجزئة على حدٍ سواء، وبفعل تراكم التراث الحضاري المشترك.

مما تقدم نخلص إلى القول بأن القومية العربية حقيقة قديمة لأنها خلاصة تطور وتفاعلات لقوم في بيئة ومنطقة واحدة، وليست وليدة القرن التاسع عشر كما يذهب إلى ذلك الكثيرون رغم أنها أخذت بوسائل الفكر الحديث حينما برزت الدولة القومية في أوروبا، فكانت مضامين القومية العربية غزيرة وواضحة في القرنين الأخيرين التاسع عشر والعشرين، وأما الحديث عنها فنجده أيضًا بدرجة أقل، في الأحاديث

والنصوص القديمة. فقد ورد في القرآن الكريم، (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم)، وورد أيضًا (وخلقناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (سورة الحجرات ١٣)، وفي هذا يخيل لنا اعتراف بوجود المجتمعات القومية المتميزة عن بعضها باللغة أي بالثقافة والفكر. قال الرسول صلى الله عليه وسلم، "يا أيها الناس، إن الرب واحدٌ، والأب واحدٌ، وليست العربية بأحدكم من أبٍ وأم وإنما هي اللسان. فمن تكلم بالعربية فهو عربي" (ابن عساكر – تهذيب تاريخ دمشق الكبير – ج ٦، ص ٢٠٠، ثم ص ٤٥٢).

وأن الرسول الكريم اعتبر "سلمان الفارسي" عربيًا حين قال "سلمان منّا أهل البيت"، واستنكر اعتبار بلال الحبشي وصهيب الرومي غير عرب. وهكذا فكل من كان من أصل غير عربي ثم تحدث أو كتب بالعربية، ولم يصرح بانتمائه لغير العرب فهو عربي، بل إن من المستعربين من دافع عن العروبة بقوة وهاجم الحركة الشعوبية. وتنقل لنا كتب السيرة، أنه في القرن الثاني للهجرة، سأل "أبو جعفر المنصور" مولى هشام بن عبد الملك عن هويته فأجابه قائلاً: "إن كانت العروبة لسانًا فقد نطقنا به، وإن كانت دينًا دخلنا فيه" (عبد العزيز الدوري، مجلة شؤون عربية، العدد ٤٣، سبتمبر ١٩٨٧). وهنا مفهوم القومية العربية ينفي الجانب العرقي ويؤكد على اللغة والتراث الروحي، ثم أن الكثيرين من الكتاب العرب المعاصرين ربطوا بين العروبة والإسلام من أمثال "عبد الرحمن الكواكبي"، "رشيد رضا"، "عبد الحميد بن باديس"، "شكيب أرسلان"، "نجيب عازوري"، عبد العزيز الثعالبي"، "علال الفاسي"، "ميشيل عفلق"، "شبلي العيسمي".

أما ابن تيمية فيضيف: "اسم العربي في الأصل كان اسمًا لقومٍ جمعوا ثلاثة أوصاف، أحدها، أن لسانهم كان بالعربية، الثاني أنهم كانوا أولاد العرب، الثالث: أن مساكنهم كانت أرض العرب وهي جزيرة العرب. فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار وسكنوا سائر البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب.. وما ذكرنا من حكم اللسان العربي وأخلاق العرب، يثبت لمن كان كذلك وإن كان أصله فارسيًا، وينتفي عمن لم يكن كذلك، وإن كان أصله هاشميًا".

ويذكر ابن تيمية عن شخصيات بارزة من السلف قولهم: "أن أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي" قال: "من ولد في الإسلام فهو عربي". وهو بذلك يتحدث عن تطور مفهوم العربي والعروبة. فبعد أن كانت مقوماتها اللغة والعنصر العربي والأرض، أصبحت في زمن الإسلام اللسان العربي والأخلاق العربية وتراث الإسلام. ويقول "ابن منظور" في معجمه المشهور "لسان العرب" ، أن العربي هو من سكن بلاد العرب ونطق بلسان أهلها... وأن المستعربة قومٌ من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم وحكوا هيئاتهم".

لقد كان عامل انفصال العالم العربي وتقطيع أوصاله بسبب خلق الدولة القطرية وجعلها متحجرة من أبرز العوامل التي لم تساعد على إنجاح الوحدة العربية حتى الآن، وذلك بسبب ولادة مصالح طبقية وسياسية وأسرية حاكمة ذات مرجعيات خارجية ومتباعدة في كل قطر. هذا بالإضافة إلى آثار حقبة طويلة من التخلف والجهل مرت بها الأمة العربية منذ انهيار الدولة العربية الإسلامية وسقوطها على أيدي المغول والتتار والأتراك خصوصًا حينما سقطت بغداد أولاً على يد هولاكو عام ١٢٥٨م، وما تلا بعد ذلك من قوى استعمارية وإمبريالية معادية للعرب وللعروبة. كل ذلك كان له دور فعال فيما وصل إليه حال الأمة العربية في هذا الزمن بل وكان معرقلاً للوحدة العربية.

لقد كان لتنصل الدول الاستعمارية من وعودها للعرب دور كبير في إضعاف وتمزيق الوطن العربي، وقد تجلى هذا في معاهدة سايكس- بيكو ١٩١٦م، ومؤتمر الصلح بفرساي ١٩١٩م، ومؤتمر سان ريمو ١٩٢٩م، وسواها مما كان قبلها أو بعدها والتي كانت مشاريع تآمر على الوطن العربي، وما تلا بعد ذلك أيضًا من تآمر على الوحدة المصرية السورية، وكما النزاعات التي ما فتأت تحدث بين هذا القطر العربي وذاك، ومساعدة الاستعمار لهذا الحاكم العربي أو ذاك. وفي كل هذا لم يكن أصحاب المشروع الصهيوني غائبين. فقد كانت رائحة انبعاث طبخ الدولة الصهيونية تملأ المكان، لهذا استمر السعي لتمزيق الجهد العربي عن طريق الخلافات الطائفية والعرقية، وعن طريق إذكاء المصالح القطرية الضيقة التي لا تخدم إلا الأنظمة الحاكمة وإسرائيل دائمًا.

إن من أهم أهداف الفعل القومي العربي نظريًا وعمليًا، أنه تغذية المشاعر الانفعالية والعاطفية المستقرة في نفوس الكثرة من أبناء الشعب العربي التي تشعرهم بوحدة وجودهم ومصيرهم. من ناحية، يكون وعيًا عقليًا علميًا محركًا من جانب يعمق مشاعر الوحدة في النفوس ويجعل المصير مشتركًا. ومن ناحية أخرى، يكون نضالاً فكريًا سياسيًا مستمرًا، يؤكد حقيقة تكامل الوجود العربي.

لقد أثبتت الأيام أن تجربة الدولة القُطرية تجربة غير ناجحة لكنها باقية بسبب بقاء العوامل والظروف التي أوجدتها. إن مبدأ الوحدة لم يفشل والدليل أن في كل كبوة يتعثر فيها العرب ترتفع الأصوات المنادية بالعمل العربي والموقف العربي وهو المسموح التصريح به من قبل الأنظمة التي تراقب الإعلام دائمًا في بلادها. إن المد القومي الوحدوي هو العلاج الوحيد والدواء الشافي لحل المشاكل الاقتصادية والسياسية والأمنية، ومقاومة النفوذ الأجنبي بشتى صوره ومقاومة الأطماع الاستعمارية والصهيونية، وهل يوجد غير هذا من دواء؟!

إن المشروع الحضاري العربي الذي وضع في أواخر عهد الدولة العثمانية، والذي ما زال جزءًا من المشروع الحضاري الإسلامي أيضًا، هو المشروع الذي بلورته دائرة الحضارة الإسلامية. وبعد زوال الخلافة الإسلامية وظهور الدولة العربية الإقليمية أضحى المشروع مختصًا بالدائرة العربية، وصار على هذا المشروع أن يواجه المشاريع الاستعمارية التي راحت تُرسم لوضع البلاد العربية تحت مناطق النفوذ، فكان أشدها المشروع الصهيوني الاستعماري الاستيطاني لاغتصاب فلسطين. وعلى ذلك كان على حركة النهضة العربية أن تتصدى في آنٍ واحد للمشاريع القادمة من الخارج ولاستبداد أنظمة الحكم، وكذلك التصدي للظلم الاجتماعي.

لقد واجه الوطن العربي منذ القرن التاسع عشر الميلادي تحديًا واحتكاكًا مع الغرب، نجم عنه تغير في الحياة العربية على صعيدي الأفكار والمؤسسات، ونشأ حول ذلك جدل لم يتوقف حتى الآن. لهذا كان الحديث عن الفكر الغربي ذا شجون، وذلك للدور المزدوج للفكر الغربي الذي تحدى به المشروع النهضوي العربي في

الداخل من خلال التناقض بين حقوق الإنسان العربي ونظيره الغربي، ومن الخارج من خلال الهجمة الحضارية التي ترعرع فيها الفكر الغربي بدافع الإيمان بالعلم الطبيعي باعتباره العلم الحقيقي الذي يجب أن يعطى الاهتمام الأكبر، ثم بدافع الإيمان بالإنسان نفسه باعتباره أهم المخلوقات على البسيطة ثم الإيمان بالعقل لأنه ميزة الإنسان عن غيره من المخلوقات.

جانب آخر تحدى وواجه به الغرب الحضارة العربية، هو، مقولة وحدانية الحضارة الغربية وإنكار ما قدمته الحضارات الأخرى، المقولة التي قال عنها الفيلسوف البريطاني "توينبي" في مؤلفه "دراسة في التاريخ" بأنها خاطئة. ورغم تفنيد توينبي ودحضه لمقولة وحدانية الحضارة الغربية ومن أيده، إلا أن الموقف الغربي ونظرته إلى الحضارات الأخرى شكل عند الغرب مقياسين، خطأ وصواب. موقف ونظرة ومقياس في وطنه الغربي يطبقه على أبناء جلدته ومواطنيه، ومقياس آخر للأوطان وبني البشر من غير مواطنيه.
من هنا تصرف الغرب الاستعماري وكأن الإنسان الأبيض خليفة الله على الأرض، فباكتشاف البخار والميكانيكا وازدهار التجارة، اندفع الغرب يستعمر ويتعالى على الآخرين، وأضحت أوروبا قلب العالم وقيادته، وعانى العالم كثيرًا من الغرب الاستعماري الذي توج نفسه وكأنه صاحب رسالة وعلى الأجناس الأخرى إطاعته، وإلا فإخضاعها بالقوة مقبول، وبهذا نُهبت الثروات وأضحت المستعمرات بمن فيها من البشر أدوات لتحقيق مصالح الغرب.

هذا، ولقد ظهر الفكر القومي العربي بصيغته المعاصرة بعد أن غزا الاستعمار الأوروبي بلاد العرب، فمنذ ذلك الحين صار احتكاك الغرب مع المشروع الحضاري النهضوي العربي. كانت الحملة الفرنسية في العصر الحديث على مصر سنة ١٧٩٨م أول احتكاك عملي مع العرب ، ثم تتالى بعد ذلك موجات التدخل الغربي حينما اشتد ضعف الدولة العثمانية، وخلال ذلك تم تبني الفكر القومي العربي الذي كان به الدين والماركسية والحضارة والقطرية، وكلها من مكونات الأمة، إلا أن الانتماء القومي في ذلك الوقت تغلب عليها جميعا. ولذا فقد هب العرب في الحرب العالمية الأولى بقيادة الشريف حسين بن علي يطالبون بدولة عربية قومية.

ودارت الأحداث وتبدلت السنون والظروف وانتهت الخلافة العثمانية نتيجة للحرب العالمية الأولى، ثم حدثت نكبة فلسطين، وهزم العرب في ١٩٦٧م، ثم كان ما كان في حروب الخليج العربي التي على أثرها جرى احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد تأثر المشروع النهضوي العربي بالأحداث الجسام التي أشرنا إليها، وظلت بعض القضايا مطروحة وان اختلفت درجة الاهتمام والأولوية في أجندة التنفيذ، فكانت قضية التحرر هي التي تلح في الفترة ما بين الحربين العالميتين، وأخذت بعدا جديدًا في مرحلة المد القومي بعد الحرب العالمية الثانية. وحصلت أقطار عربية كثيرة على استقلالها وازدادت المشاكل والطروحات. منها مشكلة التوفيق بين الانتماء القُطري والانتماء القومي والانتماء الحضاري، ومشكلة العلاقة بين الوطن -الدولة- وبين الوطن الكبير ودائرة الحضارة الإسلامية، ومشكلة التطور والتقدم، ومشكلة العلمانية والصدام مع الدين.

لقد مرَّ المشروع النهضوي العربي بمستويين من التشجيع والإحباط، وكان لعامل المناخ المحيط أثره. فقد رأينا أثر التشجيع إبان تدفق ثورة التحرير العربية في الخمسينيات، وشاهدنا الإحباط الذي سيطر على الكثيرين في مرحلة ما بعد النكسة عام ١٩٦٧م والإحباطات التي تلت. فأشير بإصبع الاتهام إلى العقل العربي بسبب السقطات المتتالية والبرود العام الذي يلف الدولة الإقليمية العربية، بل ومضى التشكك في مسار وازدهار الحضارة العربية الإسلامية وأفولها، واتهم العقل العربي بالقصور عن استيعاب العلوم الحديثة. لكن الجدل في هذا طال، وتباينت الأفكار، وأجمع الكثيرون على أن السبب، هو أزمة عند أصحاب القرار السياسي في البلاد العربية بينهم وبين الفكر القومي العربي الذي كان له دور بارز في محاولة النهوض بالأمة وتحقيق النهضة الأولى منذ القرن التاسع عشر الميلادي.

كان يمكن أن تكون نكسة ١٩٦٧م مجرد كبوة أو عثرة للأمة العربية وليس أكثر، فمنذ الأيام الأولى التي تلت النكسة بحكم ما نجم عنها، تأثر المشروع الحضاري العربي ايجابيًا، وتجلى ذلك في قمة الخرطوم عام ١٩٦٧ التي خرج العرب منها

باللاءات الثلاث، لا مفاوضات، لا صلح، لا اعتراف بإسرائيل. وقد شهدت الفترة نفسها تنسيقًا عاليًا في حرب العاشر من رمضان عام ١٩٧٣م إضافة إلى عالم عربي مساند خصوصًا من دول النفط العربية، كان له الأثر الكبير على الرأي العام الغربي. ما كاد هذا الخط التضامني البياني العربي الصاعد يتشكل ويعطي معنى حتى انعطف فجأة هابطًا بعد عام ١٩٧٤م حينما ألقى ياسر عرفات خطابه الشهير في الجمعية العامة للأمم المتحدة بمباركة مصر ودول عربية رئيسية، ثم بعد توقيع اتفاق كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٨.

وتفاقم الأمر على المشروع الحضاري النهضوي العربي من التحالف الاستعماري الصهيوني في أواخر عقد الثمانينات، حينما انهار الاتحاد السوفييتي. وأصبحت الولايات الأمريكية المتحدة تنفرد وتستفرد بالنظام العالمي، وراحت تنفذ استراتيجياتها في المنطقة العربية. هنا دخل الوطن العربي في نفق مظلم خصوصًا على صعيد العلاقات بين الأقطار العربية، مما مكن الولايات المتحدة من قيادة حلف دولي ضد العراق عمل على محاصرته، وشرع في تسوية الصراع العربي الإسرائيلي بجهود أمريكية مباشرة، فانعقد مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١م من أجل "عملية سلام الشرق الأوسط".

لو استدعينا تلك المرحلة سنجد أنها اتصلت بالأحداث الدولية عوضًا عن الأحداث الإقليمية. الرئيس الأمريكي "جورج بوش" الأب بشر بفكرة إقامة النظام العالمي الجديد الذي سيكون بقيادة الولايات المتحدة كقطب أوحد مستظلة في تحركاتها براية منظمة الأمم المتحدة مع عدم تمكين هذه المنظمة من القيام بدورها في حماية الشرعية الدولية. وهكذا شرعت الولايات المتحدة بطريقتها بعولمة العالم اقتصاديًا وثقافيًا من أجل التحكم في السوق، وجعل الثقافة لمتطلبات السيطرة على السوق، والإمساك بمصائر دول الشرق الأوسط وإعطاء إسرائيل دورًا رياديًا في المنطقة باعتبارها قاعدة استيطانية غربية، وعلى ذلك فرضت المفاوضات الثنائية على العرب مع إسرائيل، وأصبح استفراد إسرائيل بكل دولة عربية خلال المفاوضات أمرا واقعا وهو ما جعل لها اليد الطولى في فرض شروطها.

لقد أثبتت الأيام والأحداث بأن لا مفر من تحقيق المشروع النهضوي العربي بما فيه شقه الوحدوي والديمقراطي، لأنه لا سبيل إلى الانتصار على مخططات الأعداء إلا بتحقيق تلك الأهداف النبيلة للإنسان العربي من كرامة وحرية وديمقراطية وانتعاش اقتصادي. لقد عمل أعداء المشروع العربي النهضوي على محاربة مشروع الوحدة العربية لأجل استبداله بنظام الشرق الأوسط الجديد.

إن تنفيذ مثل هذا التحليل العلمي بمعناه العميق ليس بالأمر السهل، لأنه بحاجة إلى تضافر العقول العربية من أجل تحليل الواقع العربي وإدراك جذوره التاريخية، فمن أجل البحث بحثًا توليديًا تكوينيًا في نشأة المشكلات التي يواجهها العالم العربي وتحدي العقبات التي يشكو منها، لا بد من إيجاد سبيل للتأثير الفعَّال والمجدي في مسيرة واقع عربي لا نعرفه حق المعرفة حتى اليوم.

سؤال بسيط لكنه كبير في معناه ومدلوله، ويمكن لأي متفكر أن يطرحه على نفسه أولاً ثم يعممه على الآخرين بنفس القدر:

هل يمكن للعرب أن تقوم لهم قائمة، وان يأخذوا لهم موقعا بين الأمم المتقدمة؟

إن مجرد وقوف الإنسان العربي في كل الأقطار أمام هذا السؤال، سيجعله يتفاجأ، وسيرتبك من معناه بكل الأبعاد المادية والمعنوية في كيف يمكن أن تكون الإجابة بينما هو يعلم أن ما في جعبته من آليات تنفيذ، تعتبر خجولة من ناحية إمكان إيجاد الإجابة الملائمة للسؤال، مفضلاً البقاء على مسافة من الإجابة الصحيحة حتى وإن ملك بعضًا من أطراف خيوطها الشكلية في ظل فقدانه التبحر في أسباب التفاعل الكامل مع تلك الخيوط. هذا، رغم أن العالم العربي له موقع استراتيجي جغرافي وتاريخي مميز، ولديه مقومات كثيرة بشرية، وموارد طبيعية، تضع سؤالاً مشتقًا من السؤال الأول: هل الشعب العربي معني بأن يصبح وطنه الكبير، قوة مؤثرة في المعادلة الدولية؟

نظريًا.. إن الوطن العربي المرتبط بمفهوم الأمة الواحدة كالانتماء، وبمفهوم القومية العربية كفكر، له هوية سياسية تبلورت من خلال اللغة والمصالح المشتركة، والتاريخ، والعقيدة الدينية التي أثرت في هذا التاريخ وجعلته متينًا،

وهذا ما يمكن أن يجعل الوطن العربي قوة لها قدرها المهم بين أمم الأرض. ومع هذا التميز فإنه يوجد الكثير من التحديات، كالتجزئة، والمفاهيم القطرية الإقليمية، ووجود إسرائيل في وسط الوطن العربي، والأطماع الدولية بأبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية التي تعيق التنمية، والصراعات الإقليمية، والأمية، وانخفاض الوعي القومي، وعدم تحقيق الديمقراطية التي تأخذ بخصوصية المجتمع العربي. كل هذا ظل يمنع قيام هذا الصرح المنشود. ومع ذلك ورغم كل تلك التحديات والموانع، هل يستطيع الوطن العربي أن يصبح قوة عالمية بعد أن فشلت كل المحاولات الوحدوية التي جرت في الماضي؟

ربما.. إذا تم الأخذ بمعطيات العصر ومواجهة الواقع بإصرار وتحد لأجل تغييره، فإن الإجابة تكون بنعم، وذلك أن تحقق شرطان، هما، التنمية الوطنية، والتكامل الاقتصادي بين المجتمعات العربية ضمن خطة استراتيجية تقود في النهاية إلى الوحدة الحقيقية. فالوحدة هنا ليست من أجل تعبئة الموارد البشرية فقط، وليست فقط لحاجة العالم العربي لها، وإنما هي آنية من أجل القضاء على أمراض التناقضات المستوطنة بين الأقطار العربية.

أما التنمية الوطنية التي نقصدها هنا، فهي زيادة الناتج المحلي، وخلق فرص العمل، وتطوير الريف لأجل الحد من الهجرة إلى المدينة، وتصحيح الميزان التجاري بين الاستيراد والتصدير بترشيد الاستهلاك، والاهتمام بالخدمات. وأما بالنسبة للتكامل الاقتصادي العربي، فإن عوامل هذا التكامل الاقتصادي متوفرة، فالقوة البشرية.. الموارد الطبيعية.. القوة المالية، كلها موجودة. وما يعيق ينحصر في العقبات السياسية والأيديولوجية والاجتماعية والتنظيمية والهيكلية الإعلامية، وتفاوت الدخل بين أبناء الوطن العربي، وفوق هذا توجد تبعية ومرجعية خارجية في كثير من أقطار الوطن العربي، وكلها تحتاج إلى تذليل. من هنا ربما كانت الإجابة على الأسئلة السابقة ليست بذات السهولة التي يمكن تخيلها، وهنا يكمن التحدي الحقيقي الذي يحتاج إلى وعي والى إرادة والى تحد.

لقد عاشت الأقطار العربية منذ استقلالها ظروف التجزئة، فلم تتقدم حتى الآن لا في الاقتصاد ولا في السياسة، ولا اجتماعيًا ولا ثقافيًا، ولم تحل مشكلة من مشاكلها. إذا من الطبيعي لو أنها سعت إلى أن تجرب بعد هذه السنين من التأخر، أن تعمل على تحقيق الوحدة الاقتصادية تمهيدا للسير نحو الوحدة الشاملة لأن الألف ميل أولها خطوة، ذلك بعد أن عاش الوطن العربي ظروف التجزئة بالعرض والطول. فليس عيبًا لو جربت أن تحذو الأقطار العربية حذو الأمم الأخرى التي تسعى إلى إيجاد التكتلات الاقتصادية والسياسية، لأن ليس للأمم الضعيفة مكان بين كتل العولمة العملاقة في العالم، الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، ومنظمة التنين الصيني، وغيرها من التكتلات الحالية والناشئة. لماذا لا تبدأ الدول العربية على الأقل بالتكتل لكي تصنع منه خطوة تمهيدية تجاه المسيرة الوحدوية القومية؟

دعنا نقول بصراحة، إن الوعي السياسي العربي لم يرق بعد إلى مستوى الوعي النقدي الثائر، الذي يكون مستعدًا بالتغيير الكامل على أسس ثورية حقيقية. كما أن المفاهيم الشائعة عادة ما تكون أكثر ابتعادًا عن الاهتمام بفحصها وتدقيقها، ومع تداول الأيام عليها تصبح أكثر غموضًا. إن من المفاهيم الأكثر غموضًا وشيوعًا في الوقت نفسه، مفهوم الوحدة العربية، ومفهوم التجزئة القومية، اللذين استقرا في الوجدان العربي، إن التجزئة هي النقيض التاريخي المحير للوحدة العربية.

إن الفكرة من الحديث في هذه الجزئية، هي محاولة منا متواضعة لإعادة بناء مفهوم الوحدة، ومفهوم التجزئة، وذلك باعتبار أن المفاهيم والمقولات العقلية البحتة المبنية على أساس علمي، تشير إلى الواقع بصورة أعمق وأكثر دقة بقدر الإمكان، وهي في الوقت نفسه غير معتدية. وأما لو جافاها الصواب فيكفي أنها ساهمت في طرح القضية التي بات من الأهمية إظهارها. فالأمة العربية التي تعاني من التجزئة القومية، لا تعتبر مختبئة أو منزوية، كما أنها ليست جامدة، وهي تتأثر بموجات التاريخ. وقد رأينا كيف أن إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين قد أيقظها في القرن العشرين، ولولا التقلبات الدولية والإقليمية، لكان العرب أقرب إلى تحقيق الوحدة الحقيقية. إذا فالأحداث الداخلية والخارجية تؤثر سلبا أو إيجابًا في

المد القومي نحو الوحدة، فما كان بالأمس في ظرف ما قوة جاذبة للوحدة، أصبح في ظرف آخر نابذًا أو مُهونًا من قدرها.

يوجد إذن دائمًا عامل حاسم من بين عدة عوامل وشروط في كل مرحلة من مراحل التاريخ هو المحدد، وقد يكون مباشرًا أو غير مباشر أو عرضي. فقد يكون في بعض الأحيان أيديولوجيًا أو سياسيًا أو اقتصاديًا أو أي شيء آخر. ومع هذا يمكن القول بأنه يمكن أن تكون جميع الأسباب مشتركة هي الحسم، ولكن أثر كل سبب يكون بنسبة أقل أو أكثر من الأسباب الأخرى.

إن أي وحدة كالوحدة القومية، لا تأتي أو تحدث من فراغ، بل تنبع من واقع التعدد والتناقض، فتماسك المجتمع أو عدم تماسكه أو قوته أو ضعفه أو تجزئته، كل هذه تعتمد على نوع العلاقات بين مكوناته من تعدد واختلاف وتناقض وانقسام إلى قبائل وجماعات إثنية وقومية ولغوية ومذاهب وأديان إلى أخره. وعملية التوحيد تتم إذا تمكن المجتمع من تجاوز هذه الجدلية بأخذ أسبابها في الاعتبار ضمن مشروع الوحدة المنشود. أي أن النقيضين، التجزئة والوحدة يجب أن يحمل الواحد منهما الآخر في وجدانه على نحو ضمني واضح. أما إذا كانت العلاقة بين النقيضين علاقة تنافر وتباغض وتتطور في هذا الاتجاه، فإن كلاً منهما يتجه لكي يصبح كيانًا ثابتًا ساكنًا.

إن التجزئة في الوطن العربي، هي محصلة وضع التأخر التاريخي للأمة العربية والظروف الاستعمارية التي نشأت عنه. إن تجزئة الوطن العربي تمت بفعل خارجي بسبب التخلف العربي الذي رافقه تمزيق الإمبراطورية العثمانية التي كان العرب جزءًا مهما فيها. إن تجزئة الوطن العربي حدثت لأسباب لكن الوحدة كانت قائمة يوما، فالأصل هو أن الوحدة وهي الأصل كانت قبل التجزئة.

يُستنتج من هذا أن تعدد الأقطار العربية يوحي بأن الوحدة موجود كامن ينتظر، وقابل للتحقيق والانتقال من كونه طاقة كامنة إلى فعل. لكن الانتقال من الطاقة إلى الفعل له شروط ذاتية وموضوعية لا بد من تحقيقها. فالرغبة وحدها وتمنيات الجماهير العربية لا تكفي، لأن الرغبة والتمنيات هما غير الارادة.

من هنا يتضح لنا أن الوحدة ممكنة، لكن صيغة وحدة تجمع أقطارًا مجزأة بصيغة دمجها في وحدة تبدو في الظاهر لا يحقق هدف الوحدة الحقيقي. أي أن إزالة الحدود وإلغاء الكيانات القطرية على أهمية ذلك، ليست عملية توحيد في حد ذاتها، إنما هي مقدمة للوحدة. أما الوحدة الحقيقية فهي التي تأخذ في الاعتبار الخصوصيات الدينية والمذهبية للأقليات وتوفر الحرية للمواطنين، وتأخذ بالديمقراطية.. أي بناء مجتمع مدني صحيح.. دولة قومية - أمة.

إن إزالة الحدود المصطنعة، وتشجيع الاستثمار الاقتصادي في الأقطار العربية فيما بينها، وتوحيد مناهج التربية والتعليم وما شابه من أسباب تقرب ولا تباعد، هو المقدمة الحقيقية لخلق تفاعل اجتماعي سياسي وحدوي حقيقي يصنع ثوبًا خاصًا للانتماء القومي العريض. وبسبب استمرار وجود الحدود المصطنعة بين الأقطار العربية، نجد حتى التفاعل الاجتماعي والسياسي في القطر الواحد يكون بطيئًا، وكثيرًا ما يتعرض للتشويه والانحراف عن مساره.
لهذا، لا بد من إيجاد هزة أو خلخلة بفعل سياسي مباشر، لأجل تحريك القوة الكامنة في المجتمعات العربية حتى تصبح فعلاً ظاهرًا. إن القطر الأكثر تطورًا هو الذي سيكون مؤثرًا، وهو الذي قطعًا سيقود مسيرة الوحدة. قد تكون ثورة الشباب التي تجتاح الأقطار العربية هي الهزة التي ستؤدي في النهاية إلى مشروع وحدوي قومي عربي حتمي ضمن شروط موضوعية مواتية مرهونة بالوعي والإرادة والتنظيم، وبالمبادرة التاريخية للجماهير.

إن الإخفاقات والهزائم التي ابتليت بها الأمة العربية، تعود إلى عدم توفر الوعي المطابق للواقع. إن الوحدة العربية ما زالت أسيرة الرؤى المتناقضة المتوازنة التي تجعل الوضع ساكنًا لا يتقدم. ألا يكفي الحاجة إلى التحرر من التبعية للقوى الأجنبية والحاجة إلى التخلص من الغطرسة الصهيونية، ومن كل اضطهاد قومي يمارس في الأقطار العربية، ألا تكفي هذه الحاجات وغيرها لبعث الوعي القومي لكي يطالب بالوحدة؟ ألا يكفي بأن الأمة العربية تعاني من حالة التخلف في الاقتصاد والسياسة والإدارة.. الخ، وأن الخروج من هذه الأزمة يلزمه تحقيق الوحدة والديمقراطية لأجل أن تتاح الفرصة للتكامل والإبداع وانطلاق عجلة الإنتاج؟

▪ الثقافة الحائرة

إن الفهم الخاطئ للهوية، كثيرًا ما يجعل الثقافة العربية مأزومة، ويخلق مفاهيم متناقضة تتحول إلى جزء من أزمة المجتمع العربي. فإذا كان الخلاف في الماضي يدور حول العلاقة بين التراث والحداثة بكل الصيغ التي تصفهما، قد أدى إلى تراجع في الوعي العام للأمة، وتراجع في معرفة الآليات اللازمة للتطور، فإن المشكلة الآن أشد وأقسى وأعمق خصوصًا وأن التقدم باسم الاشتراكية قد أعطى المشكلة أبعادًا أخرى، وأضحى الصراع حول الهوية قبل اختيار المحتوى الاجتماعي، الذي يناسب الأمة العربية كنهج اقتصادي، كي لا تظل حركة التغيير مجرد شعارات رنانة.

أحد الحلول المطروحة على طاولة الاختيار، هو التجاوب والأخذ بكل ما يكون جديدًا، وعدم التمسك بالتراث حتى لا يعيق التقدم، لأن التقدم يحتاج إلى زمان ومكان، أما التراث فببساطة هو ماض صامت، وبهذا فإنه فاقد الأهلية للتقدم.. أين الزمان والمكان حتى نطلق عليه تقدمًا. وهذا ينطبق على التطور في المجالات المختلفة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وإنسانية، وكل ما له علاقة في خصوصية الهوية للأمة.

وأما الحل لثاني فهو يرى في العودة إلى الماضي هو الإنقاذ ولا حل غيره، لأن الابتعاد عن التراث هو الخلل لأنه ابتعاد عن الأصول كونه الهوية الحضارية.. وأن كل ما يأتي من الغرب كالعلوم والسلع الاستهلاكية الجديدة ضار، وملوث للهوية القومية.. فهو وإن كان يساعد على التقدم فانه يعمل على إلغاء الهوية.

لهذا أضحى مفهوم الهوية القومية يحتل مساحة واسعة من التفكير بعد أن أثارت العولمة التساؤلات في أقطار كالعالم العربي حول إشكالية الهوية الثقافية داخليًا وعالميًا خصوصًا وأن الهاجس كبر بعد أن راحت موجات تسونامي التعددية والدمقرطة وصراع الحضارات تطغى وتعم وتعتدي وتغزو الثقافات الأخرى وتحدث تفكيكًا لبنى العلاقات الاجتماعية في الدول، ولا تعترف بحدود الثقافات ولا بالمساواة بينها كثقافات متعددة منتجة لمحاصيل مختلفة من إبداعات الخصوصية.

إن الهوية لأي أمة هي مشروع ثقافي غير ثابت مفتوح على المستقبل. والهوية ليست شيئًا واحدًا، وإنما تتشكل من عدة عناصر مختلفة، أهم هذه العناصر الأثنية، والدينية، واللغة، والأخلاق، والمصلحة، والخبرة العلمية، والوعي الوجداني الخاص. بل إن الهوية هي محصلة العناصر السابقة وليست مجموعها، لأنها تشكلت نتيجة خبرات وتجارب وتحديات فردية وجماعية مع مرور الزمن وليس مرة واحدة.

هنا، سنكتفي بهذا التعريف المتواضع للهوية ولن نذهب لاقتراض ما قاله غيرنا عن تعريف الهوية حتى لا يغيب عنا المقصد العام من الحديث. لحسن الحظ أن التعاريف الأخرى سواء كانت نصية أو فلسفية أو مادية لا تبتعد عن المعنى البسيط الذي نعرضه هنا. الهوية لأي أمة هي وطن وجداني يحتل مكانة في قلوب وأرواح ونفوس من ينتمون إليها، وهي مرتبطة بعملية التنشئة الاجتماعية والتربوية بما في ذلك التعبير السياسي للهوية على صورة أحزاب وجمعيات وحكومة أو حكومات بأفكار وأنظمة مختلفة إلا أن سقف الولاء والانتماء للهوية لا يتغير. الهوية باختصار آخر هي ملك للجميع فلا أحد مفوض بالتنازل عنها، وفي حالة الهوية العربية، هي رد فعل ضد الآخر لتاكيد "الأنا" العربي التي تشكلت من اللغة والتاريخ في جغرافيا واحدة.

يُجمع المؤرخون على أن التاريخ العربي لم يبدأ بالإسلام، وليس بالزمن الجاهلي وحصره في القرنين اللذين سبقا الإسلام، كونهما كانا مرحلة وصل بين ما قبلهما مع الإسلام. وحينما جاء الإسلام تطورت الهوية العربية فكانت وحدانية الله بدل تعدد الآلهة، وصار الولاء للأمة بدل الولاء للقبيلة، وأصبح العدل بدل العرف والعادات الجاهلية. وحمل لنا التاريخ العربي الممتزج بالإسلام مفهومين ما زالا معنا حتى الآن، القومية العربية والأممية الإسلامية، أو ليس الإسلام للناس كافة؟

في القرون الخمسة الأولى للهجرة حقق المسلمون تقدمًا في كافة المجالات المعرفية النظرية والتطبيقية، فكانت الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف. ولما حقق الغرب ثورته الصناعية أصبحت الحضارة العربية حضارة طرفية تابعة بعد أن كانت مركزًا. فأدرك المفكرون العرب في العصر الحديث ما وصل إليه

الغرب، وصار هذا سؤالاً تعددت عليه الإجابات. وبلا توسع فانه لا يوجد سوى القول، إنها "الحداثة" أو التنوير. والحداثة ما كان لها أن تحدث وتعطي ثمارها إلا بسبب الثورة الصناعية التي قادتها الطبقة البرجوازية الثائرة على الإقطاع في أوروبا، وما حملته من فلسفة وأفكار تطورت إلى نظام للحكم. لقد فجرت البرجوازية قيما إنسانية أطلق عليها، العقلانية والديمقراطية والعلمانية والعولمة، وهي فرادى ومجتمعة مهدت السبل للثورة الصناعية، بدءًا بثورة البخار وما تبعها بعد ذلك من ثورات صناعية أخرى ساهمت في تقدم دول الغرب بالذات. مازالت الحداثة في السياق العربي مجرد إشكالية نظرية وسياسية، لم تجد السبيل بعد لكي تصبح ضرورة أو تأخذ حيز الأولويات عند الأنظمة الحاكمة، وبسبب الفشل التربوي والتعبوي للنشء، فلم تهتم الجماهير بالحداثة حتى تتسيد الحكم من أسفل إلى أعلى.

لا ينكر أحد بأن أهل بلاد الشام ومصر، هم أول من حاول استعادة مجد الحضارة العربية، فقد أثروا اللغة العربية وأسسوا مراحل مميزة في تاريخهم الحديث، فنتج عن ذلك تقوية الوعي بوجود تراث في الثقافة العربية خصوصًا في أواخر القرن التاسع عشر، إلا أنهم كانوا متأخرين بالنسبة للغرب. فالحضارة الغربية قامت بناء على القطيعة مع الماضي الأوروبي المظلم (الكنيسة والإقطاع)، وأما الحضارة العربية الحديثة التي لم تصل إلى مستوى الحضارة الغربية حتى الآن، فقد سعت إلى إحياء واسترداد حضارة عظيمة تكاد أن تكون مدفونة، وكان أغلب رواد هذه الحضارة في العصر الحديث من فلاسفة ومفكرين إلا ما من ندر، يستندون بشكل أو بآخر على الأساس الديني الذي يحتاج إلى تنقيته من بعض الشوائب التي علقت به نتيجة جهل وتطرف بعض العلماء الذين ساهموا بما ساهموا به في تمزيق المجتمع الإسلامي إلى مذاهب شتى، فأصبح الإسلام نفسه كأنه أحد عوامل الإبطاء الحضاري. من هنا نشأ تيار من المفكرين العرب الذي يدعو إلى التمييز والفصل بين ما هو عربي وما هو إسلامي، وبهذا نشأ المفهوم العلماني للقومية العربية، وظهر مفهوم للوطن يقوم على الروابط الاجتماعية بدلاً من الدينية.

لا شك في أن حركة النهضة العربية التي قادها والي مصر "محمد علي باشا" في النصف الأول من القرن التاسع عشر بمستوى حسابات ذلك العصر، قد حققت منجزات باهرة على الصعيد المادي، ففي عهده بُني جيش قوي، ونشأت صناعات حربية، ووجدت زراعة منتجة، وصناع مقتدرون، إلا أن زمن محمد علي كان يفتقر إلى الديمقراطية، فكان أنه استورد السلاح والخبرة من الغرب، لكنه لم يستورد الديمقراطية ليبقي على التوازي مع الحضارة الغربية.

وأما في العصر العربي الأخير، فما زالت البنى الداخلية العربية قديمة تراثية غير مواكبة للعصر وفي تيه، في حين أن البنى الداخلية في الأمم المتقدمة تمتاز بالتماسك الداخلي القائم على الوعي الذاتي. لقد أثبتت حركة التاريخ أن من أهم خصائص التجربة الأوروبية أنها تمثل سياقًا مرحليًا بحيث ينتقل نمط المعرفة فيها إلى نمط آخر مختلف جذريًا، وهو تغيير جديد في طريقة تبني الأفكار. إن من أهم سقطات القومية العربية على مدى القرن العشرين أنها لم تأخذ بالديمقراطية، فغاب المكون الاجتماعي القابل بأن يصنع نسيجًا هرمونيًا تنسجم جماهير الأمة خلاله.

لهذا، إن الحداثة في الوطن العربي تحتاج إلى نهضة تعليمية وتربوية جادة في المجتمع، يوازيها في الوقت نفسه ثورة ثقافية عقلانية علمانية دنيوية، أداتها هو النقد الصارم الذي يستهدف كل قديم ملتصق بالثقافة العتيقة والأنماط الفكرية الغيبية، كلما لزم وبلا تعد. كما يجب أن يكون لدينا منطق وفلسفة عربية ترى الواقع العربي الراهن من كل جوانبه الفكرية والفلسفية التي تعترف بالآخر وبحرية العقيدة، وأن تبصر الأشياء بعين الآخر أيضًا لكي يتوفر العدل والنزاهة والمقارنة مع الغير، ذلك لكي تظل عجلة التطور دائرة في المجتمع.

هذا، وإن مما لا شك فيه، هو، أن اللغة عنصر مهم ومكون أساسي في الهوية لأي أمة، لهذا يجب التمييز بين من يتحدثون اللغة العربية ولديهم الشعور بالانتماء للعروبة، وبين من يتحدثون العربية ولا ينتمون للعروبة، وبين من لا يتحدثون اللغة العربية لكنهم يشعرون بالانتماء للأمة العربية. صحيح أن ما يزيد أو ينقص بقليل عن ٨٥ بالمائة من سكان الوطن العربي، يتحدثون اللغة العربية وينتمون إلى

العروبة، لكن بينهم جماعات تتحدث اللغة العربية؛ كالمارونيين في لبنان؛ ولا يشاركون العرب حسهم القومي. وتوجد جماعات تنتمي للعرب وتشاركهم حسهم القومي، إلا أنها لا تتحدث العربية، مثل، جماعات في الصومال وغرب السودان وأخرى في أقطار شمال أفريقيا العربية. وتوجد أيضًا جماعات لا تتكلم العربية ولا تحس بالانتماء للعرب، مثل، الأكراد في شمال العراق وقبائل جنوب السودان (حصلت على الاستقلال في ٢٠١١ م) وقبائل البربر في المغرب والجزائر. وأما بخصوص اللغة العربية فإن هناك فرقا بين اللغة الفصيحة واللهجات العامية، ومهما كان الأمر فإن اللغة وحدها لا تشكل هوية لأي أمة.

إن ازدواجية الولاء عند المواطن العربي بين القطرية والقومية هي إشكالية أيضًا بحد ذاتها، وذلك بسبب تحول الواقع الديني إلى طائفي أحيانًا، ولهذا نجد ازدواجية "قومية ووطنية" تتمثل بإشكالية التوفيق بين الولاء للمجتمع العربي كعقد قومي، وبين الولاء للقطر. لذلك تكثر الآراء والاستنتاجات والتعبيرات والشعارات، فالمخرج للبعض،هو، القول بسيادة الولاء القومي، ولآخرين بالموازنة بينهما، ولآخرين بالولاء للقطر.

وأما بالنسبة للوحدة، فيوجد من يطلب الوحدة الاندماجية، ورأي آخر يدعو إلى وحدة الأقاليم أو المناطق كالاتحاد المغاربي واتحاد دول مجلس التعاون العربي، واتحاد وادي النيل، ووحدة الهلال الخصيب، أو إبقاء الوضع الراهن للعالم العربي كما هو، وغيرها من اتحادات أغلبها يوضع على الورق وحسب.

كما توجد في العالم العربي ولاءات متعددة، كالولاءات القبلية والعشائرية والعائلية التي هي أكثر الولاءات تأثيرًا في الحياة العربية المعاصرة. فالقبلية يمكن أن تتعارض مع الدين كما تتعارض مع القومية. كما توجد الولاءات الأثنية أي ولاءات الأقليات اللغوية والثقافية التي تتعارض مع الولاء العربي في بلدان كالمغرب والسودان والعراق والخليج. وأهم ما يجمع هذا التشكيل الاجتماعي في الوطن العربي هو التجانس في ثقافة البيئة والجغرافيا والمناخ والعادات والتقاليد والاهتمامات المتداخلة.

إن من أهم معوقات الوحدة أيضًا هو صعوبة الاتصال بين البشر في الأقطار العربية، كل قطر عربي كما هو معلوم له آلة إعلام خاصة تعمل للقطرية أغلب الوقت، ونظام تعليمي وتربوي خاص، وارتباطاته الخاصة المنفردة مع الخارج. هذا إضافة إلى المراقبة والمصادرة حتى أصبح التبادل الثقافي بين الأقطار العربية يكاد أن يكون منعدمًا.

لأجل تحقيق اندماج اجتماعي في الوطن، لا بد أن يكون هناك دور للثقافة السياسية، فعمل النظام الحاكم تنشيطا للمشاركة السياسية في المجتمع يأتي بثمار مفيدة على الصعيد الاجتماعي. من مظاهره الآنية الحوار، وتفاعل الفرد مع السلطة والمجتمع وانعكاسات السلطة والمجتمع والفرد بعضهم على بعض وصولاً إلى نقطة الاتفاق في القضايا كلما ظهر منها أمر. وبذلك يكون المنتج هو الوحدة الوطنية، التي هي من أهم عوامل التحول الديمقراطي. هذا، وما زال المجتمع العربي يحمل ترسبات البداوة من الماضي أي أن اتصاله بالقيم الحضارية مكانيٌّ وليس ثقافيا. في أقطار الخليج العربي على سبيل المثال تجد كل وسائل الحضارة والمدنية بين الأيدي بسبب الغنى، إلا أن الثقافة البدوية ما زالت تنعكس على سلوك الأفراد دون الدخول في التفاصيل.

من هنا يتبين أن مستقبل الهوية العربية، يعتمد على قيام نظام عربي ديمقراطي مستقل ينقل الأمة العربية من الحالة التي تعيشها إلى مستوى الوطن العربي المنشود بمعنى أن الوطن العربي في حالة انتقال، أي أن الوضعية المطلوبة هي نقل "مرحلة العالم العربي" إلى مرحلة الوطن العربي. أي أن حال العالم العربي الحالي يقوم على دول التجزئة ولا بد من عمل وحدة عربية عبر مشروع سياسي ثقافي اقتصادي. فالاتحاد لن يتم إلا إذا قامت المؤسسات بواجبها، كالمدرسة والدين والأحزاب والجمعيات والنوادي، وعملت كلها على تعديل ما اكتسبه الفرد من العائلة، لأن شخصية الفرد تتكون في العائلة أولاً ثم يأتي دور المؤسسات إن كان فيها نهج تربوي نبيل. لهذا إن المطلوب هو إنقاص بعض ما أتى الفرد به للمجتمع من الأسرة التي أنجبته، ذلك لأن التنشئة التقليدية للفرد في الأسرة تقوم على العقاب الجسدي مثلاً للطفل، وهذا ينشئ نزعة فردية عند الطفل كما هي عند من

يوقع عليه العقاب، فتكبر "الأنا" عند الفرد بدلاً من "نحن"، وتدفع إلى الاستقلالية بدلاً من العضوية.

ولما كان الطفل ينشأ ولا يتاح له سوى مجال ضيق لاستقلاله الذاتي في العائلة، فانه ينشأ عنده شعور بالعجز ويميل نحو الاتكالية على الغير بسبب فقد الثقة بنفسه لأنه دائمًا مخطئ في نظر الأسرة. فيكبر وينمو شعوره بأن مسئوليته هي تجاه الأسرة أو العائلة لا تجاه المجتمع، وهذا مفصل هام لبيان الفرق بين التنشئة في المجتمع الديمقراطي والمجتمع القبلي، الذي يجعل الفرد، يربط في ظل بعض الظروف بين كرامته وكرامة العائلة أكثر مما يربط بين كرامته وكرامة المجتمع. ولهذا ينظر الفرد الذي ينشأ بهذه الكيفية إلى المجتمع على انه ميدان صراع من أجل أن يؤمن لنفسه ولأسرته مكانًا فيه. إن صعوبة مقدرة الفرد على إيجاد توازن بين ادائه العائلي والمجتمعي بسبب تنشئته، تجعل الأسرة تدعم المجتمع في أمور الانتماء، وتناهضه في أمر روح العمل الجماعي التي يفتقدها كثيرًا الفرد العربي، مقارنة بالأفراد في الأمم المتقدمة. وبوجه عام فإن هذا كثيرًا ما يترك أثره بسبب بعض مظاهر التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها العائلة في المجتمع العربي، وهذا ما يفسر ولو جزئيًا وإلى حد ما نوعية الاستجابات السلبية للتحديات التي تواجه الوطن العربي.

هذا، ولما كانت العائلة هي حلقة الوصل بين الفرد والمجتمع، فإنها تلعب دورًا مهمًا في حياة الفرد من ناحية مكانته ونفوذه في المجتمع حيث توفر له العائلة القوية الحماية وتفتح له المجال ليتبوأ المنصب والعمل الذي يرتضيه. وعلى الناحية الأخرى يفشل أفراد العائلات الضعيفة، لهذا نجد أن عائلات معينة تسيطر على النظام السياسي ومؤسسات المجتمع، وترزح العائلات الأخرى تحت ثقل الهرم الاجتماعي، ولهذا كان نظام الواسطة والمحسوبية معششًا في مختلف البلاد العربية.

إن الوعي العام لا يتوفر إلا بالتعليم وبالثقافة الواسعة وبالتنشئة السليمة حسب النظام التربوي الراقي والنزيه، وهذا يكون له الميزة في إيجاد الفرد الذي يأخذ من

مجتمعه ويعطيه، ومثل هذا الشعور يجعله يتميز عن الشعور السياسي الذي هو نتيجة التنشئة السياسية.

وهنا لا بد من التعريج على نظرة الولايات المتحدة إلى العالم العربي من خلال المخططات الجاري تنفيذها، والتي توضع بعناية وتمضي أيضًا إلى التمرير بنعومة وإغراء بالغين. في الثمانينات ظهرت وثيقة أمريكية تم تقديمها لمجلس النواب الأمريكي (الكونجرس)، أطلق عليها "التعاون الإقليمي للشرق الأوسط"، اشتملت على إحداث تعاون إقليمي في الشرق الأوسط على أساس جغرافي وأساس اقتصادي، وذلك بدلاً من تعاون إقليمي مبني على أساس قومي سياسي. كل ذلك من أجل التمهيد لاعتراف عربي شامل بإسرائيل وإدخالها النظام الإقليمي للمنطقة. وفكرة المشروع هي صهيونية في الأصل وتأثيره على المدى الطويل هو لتفكيك الشعور القومي العربي وجعله ما دون الوطنية، لأنه سيعمل على استبدال القومي والوطني بالإقليمي. من هنا يتبين لنا من هذه النظرة الأمريكية كعينة كيف ينظر الآخرون إلى الأمة العربية، بأن العمل قائم على قدم وساق لأجل إذابة الشعور القومي العربي وإلغاء الفكر القومي، وتجاهل شيء اسمه الوحدة العربية.

إن العالم العربي ما زال يمر في مرحلة مخاض عسيرة، وأن المرحلة الحالية هي مرحلة انتقالية من حياة هذه الأمة بعد أن تبعثرت الجهود وحدث ما حدث حينما جاء الإسلام وأنشأ دولة الأمة. واندفع العرب بعد ذلك بالإسلام فكانت الدولة "الأموية" العربية، ثم جاء العباسيون فعملوا على الابتعاد قليلاً بالدولة عن العرب لكرههم للأمويين لبيان الشخصية الخاصة. وهكذا لم تطل الدولة العربية واستمرت الأمة حتى الآن في وضع التشكيل، ورغم أن أحداث القرن الحادي والعشرين تتوالى بسرعة عجيبة، إلا أن العالم العربي الإسلامي ما زال يطرح التساؤلات التي طرحها رواد القومية الأوائل في القرن التاسع عشر.
وهكذا مضينا نبحث عن نهضتنا الضالة بين الديمقراطية التي يراها الليبراليون، والوحدة التي يراها القوميون، والحاكمية التي يراها الجهاديون.